التعريب
كلام على منطلقه ومسيرته

أ. د. مازن المبارك(*)

بعرف الكتّاب أن الموضوع الذي يكتبون فيه يحدّده عنوانه، وأنه يفرض أبعاده على الكاتب؛ فمن الموضوعات ما يمكن أن يُكتب على أنه موضوع قائم بذاته، مستقلّ بنفسه، ليست له أبعاد تاريخية، أو ليس في حاجة إلى الخوض في تاريخه.

ومن الموضوعات ما يتطلب الموازنة لبيان ما ينفرد به أو ما يخصّه من صفات ومميزات. ومنها ما يقتضي أن يتناول الكاتب تاريخه وشيئًا من نشأته وتطوّره لبيان ما وصل إليه.

ولا بدّ في كثير من الموضوعات الإنسانية والاجتماعية التي تعالج بعض الظواهر والمشكلات والتي تحتاج إلى إصدار أحكام واتخاذ مواقف من أن يعود الكاتب إلى أصولها ونشأتها وتاريخها، وإلى المنطلقات الفكرية التي تتصل بها، وتبيّن بيئتها، وتكون إطارًا لها ومرتكزًا يربطها بتاريخها، وخاصة تلك المشكلات التي عرفنا تاريخها وعراقتها، وأدركنا مكانتها في حياتنا.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

ولست أكتم أنني قلت ما قلت لأنني قرأت في السنتين الأخيرتين مقالات عجبت منها؛ فكيف يكتب كاتب مقالة عن اللغة العربية يصفها فيه، ويغفل عن بيان كثير من خصائصها الذاتية وآفاقها الواسعة، وهو يعدّد صفاتها ويعرّف بها؟! وكيف يكتب كاتب في النقد النحويّ، وهو بإزاء جزئية لم يدرِ ما قاله النحويّون فيها وما علّلوا به أحكامها؟! وقرأت لبعض من كتب عن التعريب، فإذا هو يقتطع من تاريخ العربية كلّه قطعة أو لوحة معاصرة، وكأنها هي وحدها التي تمثل اللغة العربية بكلّ صفاتها وأبعادها، غافلًا أو مهملًا ذكر ما كانت عليه من تاريخ وحضارة.. ثم يطلق أحكامه على العربية من خلال ما تتصف به عربية اليوم من قصور وتخلّف وكأن ألسنة هذا العصر وأقلامه هي العربيّة؟!

إذا جازت الكتابة في بعض الموضوعات العلمية مقتصرة على المادة أو العنصر الذي تتناوله لبيان صفاته وخصائصه، فإن الكتابة عن اللغة لا بدّ أن تضع اللغة في مكانها الصحيح وفي بيئتها الأصيلة، وأن تبيّن قديمها وحديثها وتطوّرها والأسباب التي أدّت إلى ما آلت إليه وأصبحت عليه!

إن حديث الطبيب عن ثمرة من الثمار ليبيّن فوائد تناولها، غير حديث من يبيّن كيف نستطيع أن نحسّن نوعها، وكيف يمكن أن نحافظ عليها، وما الحلول التي يقترحها لمشكلاتها...! إنه لا بدّ له من أن يتناول حديثه بيئتها وتربتها وغذاءها ونسغها وما يصيبها من ضوء، وما يتصل بشجرتها وطبيعتها، لأن الثمرة التي يتحدث عنها هي بنت تلك العناصر كلّها.

وكذلك الحديث عن (التعريب) وعمّا يتصل به ماضيًا، وعمّا سيؤول إليه مستقبلًا، لا بدّ من أن يكون وافيًا شاملًا لكلّ ما يتصل به من شؤون اللغة وعلاقتها بأصحابها، وللغة عامّة، وللعربيّة خاصةً شأن أيّ شأن في

علاقتها بالأمة الناطقة بها، وبتاريخها وبحضارتها.

وإن الحديث في الموضوعات الإنسانية والاجتماعية لا تكفي فيه الإحاطة والشمول لعناصرها وأركانها، بل لا بدّ فيه من تحديد المنطَلَقات الفكرية التي لا يجوز إغفالها عند النظر فيها واقتراح الحلول لمشكلاتها.

إن من يكتب عن التعريب لا يجوز أن يقصر نظرته على حاضر اللغة العربية اليوم، ولا يجوز له أن يبتر مرحلة لغوية عن تاريخها وجذورها، وعن الأسباب التي جعلتها تؤول إلى ما آلت إليه اليوم! ولا يجوز أن تكون قطعة جامدة متخلّفة في مرحلة من مراحل التطوّر اللغوي، هي التي نحكم من خلالها على اللغة، وأن يكون الحكم عليها واقتراح الحلّ لمشكلتها من خلال ما هي عليه اليوم من تخلّف وضعف، ولا يجوز إهمال النظرة المستقبليّة التي يتطلّع إليها الناطقون بها وما تحمل من آمال.

على أني لست أكتم أن بعض الذين قالوا ما قالوه لأنهم رأوا في التعريب مشكلة طال عليها الزمان، وكثرت فيها الأقوال والآراء، وامتلأت بها آلاف الصفحات، وما زالت على ما هي عليه، بين قيل وقال وأخذٍ ورد!

والحق أن (التعريب) الذي نعني به تعريب التعليم الجامعي في الوطن العربيّ كلّه، أصبح مشكلة طال عليها الزمن، ودخلت كما دخل غيرها من مشكلاتنا في جملة (الأمراض المزمنة)، لأننا في هذا الزمن العربي الصعب أصبحنا أمة الأمراض المزمنة؛ فكل مشكلة في حياتنا تستطيل وتمتدّ، وتساير السنين والعصور وهي على ما هي عليه! ولكنّنا - والحق يقال! - لا ننساها، بل نحتفل بذكراها كل عام!

إن للعرب المعاصرين أعيادًا ومناسبات يحتفون بها في تواريخها كل عام، ولبعضها كاللغة العربية في العام الواحد عدّة أعياد... وهي كالمواسم

التي تعاود فيها بعض الأمراض المصابين بها لتذكّرهم بنفسها، ولتذكّرهم أنهم ما زالوا مرضى لم يبرؤوا منها! إنها تأتي في كل عيد أو في كل موعد، فنهب للحديث عنها، والاحتفال بها، فتكثر المقالات وتقام الندوات وتعقد المؤتمرات، وتصدر التوصيات، ويطبّل الإعلام ثم تنتهي القضيّة ويغلق الملفّ وتنام مع أصحابها إلى مثل موعدها من العام القادم، فتكرّر السلسلة، ويتكرّر الكلام، وتتراكم التوصيات، وننام وكفى الله المؤمنين القتال! فلقد قمنا بواجبنا المقدّس نحو لغتنا ورمز قوميّتنا... زاعمين أننا نسير ونتقدّم، وما نحن في الحقيقة إلّا مراوحون، نحرّك أقدامنا ونحن واقفون. وستعاودنا النوبة المَرضيّة أو الصحوة في مثل تاريخها من العام القادم!

لقد أُلِف عرب اليوم معايشة مشكلاتهم، وأُغرموا بأمراضهم، وأدمنوا حكَّ جلودهم، وصاروا أكثر العرب في تاريخ العرب كلامًا وثرثرة وتمثيلًا، وأقلّهم عملًا... ففي كل يوم مشكلة. وفي كل يوم عيد أو يوم نحتفي بها فيه، ولم نتخذ قرارًا، ولم ننفّذ توصية، ولم نغلق ملفّ مشكلة مذ عرفنا المشكلات!

وأعود إلى (التعريب) بمناسبة استبانة وزّعها أستاذان في الأردن هما د. هاشم مناع ود. باسل الزعبي، يوجّهان فيها أسئلة عن التعريب في التعليم الجامعي، ولمّا كان الواجب أن يكون الجواب على قدر السؤال فقد أجبت عن الأسئلة بإيجاز، وهي أسئلة تتصل بالتعريب حصرًا، لذلك رأيت أن أتناول ما يجب أن يكون منطلقًا لآرائنا في التعريب، وهل هو قضيّة جامعيّة يقتصر الأمر فيه على الطلّاب وعلى لغة تعليمهم؟ هل هو قضيّة تعليميّة أو تربويّة فقط؟!

إننا - حين نتحدث عن التعريب - بإزاء إصدار حكم أو اتخاذ قرار، بل اتخاذ موقف في موضوع طال الحديث فيه. وهو موضوع له أبعاده العربيّة والقومية والتاريخية والمصيريّة، فيجب أن نبدأ فيه، وأن ننظر إليه من خلال

معرفة الأساس الفكريّ الذي ننطلق منه إلى الإجابة عن الأسئلة المتعلّقة به.
ولا شكّ أن المنطلق الفكري الذي يجب أن نجيب من منظوره هو:

١- إننا أمة عربيّة ذات لغة كانت لها أصالتها وعراقتها، وكانت لغة حضارة سادت العالم.

٢- إن اللغة مقوّم أساسيّ من مقوّمات الأمّة، وعامل فعّال من عوامل وحدتها.

٣- إن العرب اليوم أمة متخلّفة، شعوبها متفرّقة، لهجاتها المحليّة مختلفة، لغة التعليم فيها ليست واحدة، واللغات التي يُعلَّم بها في جامعاتها متعدّدة.

٤- يجب أن نراعي أن تكون خطّة التعليم في بلادنا في العصر الحاضر:

أ- لا تسلبنا من أمّتنا.

ب- لا تقطعنا عن عصرنا وعلومه.

ج- تساعدنا على صنع مستقبل عربيّ متقدّم أو متحضِّر.

وهذا يعني أن ننسِّق بين أمور لا بدّ منها كلّها وهي:

١- أن يبقى ارتباطنا باللغة العربية متينًا متطوّرًا واعيًا.

٢- أن نستوعب العلوم بلغة من اشتهر بها من الأمم والدول (فندرس طب العيون في الدولة البارعة فيه، والفيزياء حيث اشتُهر بها، وجراحة العظام عند من برع بها... وهكذا).

٣- أن نتيح لطلابنا تعلّم اللغات التي سيتخصَّصون بالعلم في مواطنها التي اشتهرت وبرعت بتلك العلوم.

لا شكّ أن العلوم قسمان: قسم شديد الصلة بأهله لما له من تاريخ، وما له من خصوصيّة، كعلم اللغة القومية الخاصّة بأمة من الأمم، وكعلم الشريعة، وعلم التربية والاجتماع... وقسم عامّ لا يخصّ أمة من الأمم، ولا

قومًا من الأقوام، كالطب والرياضيات والفيزياء والكيمياء، فهذه علوم محضة مجرّدة من النسبة القومية. ومن الخطأ بل من الخطر أن يتعلّم أبناؤنا علوم القسم الأول في غير مواطنها وإن كان من الخير أن يعرفوا كيف تُدرّس عند غيرنا، أو أن يعرفوا مناهج دراستها. وأما العلوم الأخرى فلا بدّ من طلبها في المواطن أو الدول التي برعت فيها.

وتلك أمور يحسن النظر إليها، ووضع خطة للتعريب نراعيها، ونحاول الأخذ بها، ولا بدّ أن يكون التعريب على أهميّته ذا خطوات حكيمة لينتهي إلى نتيجة محمودة ونهاية رشيدة، ولا يتحقق ذلك إلا إذا كانت خطّته مراعية ما نتطلّع إليه من تقدّم علمي لا يبعد الأمة عن هويّتها وأصالتها المتمثّلة بلغتها، ولا يتوقّف متجمِّدًا متقوقعًا على نفسه.. إن المطلوب هو وضع برنامج متوازن يراعي الحاجة الملحّة في عصرنا إلى التقدّم العلمي، والإصرار على مراعاة الظروف المحليّة الوطنيّة في ضوء الظروف القوميّة المتطلّعة إلى عودة العرب والعربيّة إلى المشاركة في إنتاج العلم وصنع الحضارة.

إننا في حاجة إلى وضع خطّة تؤهِّل الدارسين من أجيالنا إلى الاضطلاع بما سيقومون به من تعليم للعلوم، وإبداعٍ فيها، لتكون العربية قادرة على المشاركة في العلم، وعلى التكلّم بالعلم مرَّةً ثانية كما كانت يوم كان العرب والناطقون بالعربية ينتجون العلم، ويطوّعونها للتعبير عنه، ويطوّعونه ليكون بلسانها.

وإن علينا أن نغرس في نفوس المتعلّمين من أجيالنا أننا لا نعلّم لغة عربيّة أو أجنبيّة ليجتازوا بها امتحانًا ينتظرهم. ولكنا نعلّمهم ليكونوا رسلًا يحملون العربية إلى العلم، ويحملون العلم إلى العربيّة، إنهم طلائع العلماء بالعربيّة، وطلائع العربيّة في العلوم، وتلك هي الرسالة التي يجب أن

تحملها وتدعو إليها رسالة التعريب.

على أن كل ما قلناه لا يعني القيام بالتنفيذ السريع، فإن كثيرًا من البرامج المفيدة والمخططات النافعة أفسدتها السرعة فيها والعجلة في تطبيقها، وربّ عجلةٍ تهب ريثًا!

إن مشروعًا كمشروع التعريب، مع ما يدفع إليه من مصلحة نهضوية وتطلّع مستقبليّ، يجب أن تكون خطواته حكيمة متّزنة لنكفل نجاحه. ومن خطوات تلك الخطة مثلًا:

١- ألّا يتم التعريب في الجامعات دفعة واحدة، لأن العنصرين الأساسيّين اللذين يقوم التعليم عليهما غير جاهزين، وهما أستاذ العلوم الناطق باللغة العربية، والمصدر العربيّ لذلك العلم، وهو الذي يعتمده الطلاب مرجعًا في دراستهم.

٢- وإلى أن نستكمل مستلزمات التعليم بالعربية، يمكن البدء بالتعريب بخطوات متدرّجة، كأنْ ندخل العربية إلى الساحة العلمية جزئيًا في بعض المقرَّرات الجامعيّة.

٣- تحقيقًا للفقرة السابقة تخصّص الأقسام العلمية في الجامعات مقرَّرين دراسيّين، يسمِّيها القسم المختص، ويسمِّي اللغة الأجنبية التي يُدرَّسان بها، لمدة أربع سنوات (هي مدة التدريس في الكلية) قابلة للتجديد. ويكون ذلك بحسب أهليّة القسم من حيث وجود أساتذة يتقنون تلك اللغة، لأنهم تعلّموا بها في موطنها. وبذلك يتاح للأساتذة الذين درسوا بتلك اللغة الأجنبيّة أن يدرِّسوا بها. كما نهيّئ طلابنا الذين درسوا بلغة أجنبية أن يوفدوا إلى موطنها لمتابعة دراساتهم العليا، فيسهل عليهم ذلك لِما عرفوه من اللغة

والمصطلحات العلميّة فيها.

٤- ويمكن للقسم المختص - إذا دعت الحاجة - أن يغيّر المقرّرين اللذين يُدرَّسان بالأجنبية، أو أحدهما، كما أن له أن يغيّر اللغة الأجنبيّة التي يُدرَّس بها، وأن يستبدل بها لغةً أخرى، على أن يكون المقرَّران بلغة واحدة، وأن يكون ذلك بعد أربع سنوات من تدريس المقرَّر بتلك اللغة.

٥- يطلب إلى مدرّسي العلوم باللغة الأجنبيّة أو إلى غيرهم ممن درس تلك العلوم بها، أن يترجموا مصادر العلمين المقرّرين إلى العربية، أو أن يؤلِّفوا تلك الكتب مباشرة بالعربية، لتكون مراجع عربيّة لتلك العلوم.

٦- يحسن بقاء تدريس مقرَّرين بلغةٍ أجنبية مستمرًّا لتبقى صلة العرب بالعلوم وتطوّرها مستمرّة، ولتبقى العربيّة مؤهّلة للتكلّم بالعلم كما كانت حين كان العرب الناطقون بها ينتجون العلم. ولعلّ ذلك يفتح الباب لتتكلّم العربية بالعلم، وليأتي من أبنائها من ينتج العلم ويضعه بلغته، وبذلك تدخل العربية عصر العلم من جديد.

٧- لا يجوز اتخاذ (المصطلحات الأجنبيّة) حجّة في وجه التعريب وتأجيله، لأن التعليم بالعربيّة لا يضرّه أن يكون المصطلح أجنبيًّا مشروحًا وموضَّحًا باللغة العربية[١].

ولعله يجدر بنا - وقد سبق ذكر المنطلقات الدافعة إلى التعريب - أن نختم بالتذكير بما يؤدي إليه التعريب متسائلين:

١- لماذا أسّسنا مؤسَّسات التعليم؟ وماذا يجب أن نعلِّم؟

---

(١) انظر: (المصطلحات ووسائل إنجاح التعريب) في ص٣٥ من كتاب (اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي) لمازن المبارك. بيروت - دار النفائس - ١٩٩٨م.

٢- هل نريد تبديل المجتمع المتعلِّم أو (العلميّ) لجعله مجتمعًا علميًّا ناطقًا بغير لغته؟!

٣- هل نريد حجب العلم عن العرب بحجبه عن لغتهم، وحجب لغتهم عنه؟

٤- هل نبقي العرب متخلّفين في الميادين العلميّة حتى يتعلّم الشعب العربيّ اللغة الأجنبيّة؟! وأيّ لغة أجنبيّة نعلّمه، والعلوم موزَّعة عليها جميعًا، وكلٌّ منها مبرّزة في ساحة من ساحاته؟

٥- هل في الدنيا كلّها أمة تعلّم أبناءها بغير لسانها؟!

٦- هل يطمع أعداء العرب بأكثر من إبعادهم عن العلم، وبإبعاد العلم عنهم؟

٧- هل تركت أمة في الدنيا تاريخها وحضارتها وتخلّت عن لغتها في سبيل تحصيل العلم؟ أم قامت بنقل العلم إلى لغتها؟

٨- ماذا صنعت الأمم التي كانت متخلّفة وأخذت العلوم عن العرب، سواء أكان ذلك في الأندلس أم في صقلية أو في المستعمرات من الدولة التي تقاسموها وسرقوا مكتباتها ومخطوطاتها؟ هل عرّبوا تعليمهم ولغة أبنائهم أم ترجموا العلوم من العربيّة إلى لغاتهم؟!

٩- أليس التعريب في النهاية قضية وطنيّة قوميّة، بل قضيّة وجود وليست قضية يساوم عليها؟ هل سنبقى عربًا أم سنبيد؟

إن كل ما سبق يقودنا إلى ضرورة وضع منهج تعريبيّ حكيم لا يعتمد الطفرة ولا العاطفة والعشوائية، بل يبدأ بخطوات متأنّية وجادّة نحو غاية يجب أن يستمرّ حتى يحققها على وجهها الصحيح السليم.

* * *